الالفاظ السحرية

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٥ التساهل

من بلايا الصحافة الحديثة انها ادرجت في معجمها الفاظاً تعظم في النفوس ارهابها او تستشف العقول من ورائها الاهوال فاذا اراد العاقل ان ينتقد معانيها ويعرف حقيقتها وجد نفسهُ مخدوعاً بالظواهر مستسلماً للخياليات الباطلة على مثال الذين يسرون في الليل الدامس او في مجاهل البلاد فانهم اذا لاح لهم سواد او شبح عن بعد ظنوهُ عدواً واوجس قلبهم فزعاً فاخذوا منهم حذرهُ. فاذا قربوا منهُ ظهرت لهم اشباح بلا ارواح فضحكوا من روعهم

ومما يكررهُ اليوم كتبتنا في اكثر الجرائد انَّ روح العصر يقضي بالتساهل وينفي التعصب. فاذا رأوا احداً يحافظ على مبدإ شرعي او يلزم قوانين البلاد او يدافع عن نظام السلطة او يستمسك بعُرى البرّ والصلاح نبزوهُ بلقب المتعصب. وعلى عكس ذلك ينسبون الى التساهل من رأوهُ ساعياً في مجاملة الناس حريصاً على مسايرتهم مضحياً للحظوى برضاهم كل مبدإ وفريضة

وتبلغ جلبة هؤلاء الكتبة حدودها القصوى اذا رأوا قوماً مستعصمين بحبل التُّقى يغلبون دينهم على دنياهم ويدافعون عنهُ دفاعهم عن النفس والنفيس فيرون انَّ ذلك عين التعصب وينسبون فعلهم الى ضلالة عمياء في الدين

وان عادوا بالنظر الى القرون السابقة صرخوا بالويل والثبور وكرَّروا تكرارهم للحقائق الراهنة انَّ الشرور والمفاسد والفتن والغارات التي حصلت في البلاد انما كان سببها التعصب للدين فادرجوا اقوالهم في الصحف اليومية ودسُّوها في خطبهم وصمّموا بتكرارها المسامع حتى توهَّم قوم انَّ في مزاعمهم الصحة وفي اقوالهم اليقين

فمن ثم ينبغي ان نتقدم رائد الفكر في البحث عن صادق الامر فيبرح الخفاء ويتمحص الحقّ ويزهق الباطل

ولنباشرنَّ الكلام بتحديد الالفاظ وتعريف معانيها فانَّ اللبس والشبهة كثيرًا ما يحصلان من سوء التفاهم لعدم التدقيق في ضبط الالفاظ وحقيقة معانيها فنقول:

التساهل في اللغة التلاين والتسامح وليس في الكلمة بهذا المعنى ما ينفرنا ويوجب قلقنا فانهُ من المعلوم الواضح انَّ خشونة الطبع وشراسة الاخلاق وشكاسة الجانب لمما يأنف منهُ الذوق السليم ويمجُّهُ روح الالفة. فانَّ التمدُّن في كل اطواره قد قضى بلين العريكة وسماحة الاخلاق ودماثة الطباع وحميد السجايا وبالانس واللطف في المعاملات والتغاضي عن نقائص العباد. والدين في ذلك اوَّل المعلِّمين فترى الكتب المنزلة مشحونة بالوصايا والحكم التي تأمر بحلاوة الطباع وسعة الجانب والصفح عن الذنوب فان طالعت امثال سليمان ومزامير داود وحكم يشوع بن سيراخ لا تكاد تجد فصلًا يخلو من الوصاة بالتؤدة وطول الاناة وحسن المعاملة للقريب والصبر على جناياته والغفران لساوئه

وقد زاد العهد الجديد بيانًا في ذلك اذ اوصى السيِّد المسيح تلاميذهُ بان يكونوا ودعاء كالحمام (متى ١٠: ١٦) وطوَّب الودعاء ووعدهم ملك القلوب ووراثة الارض (متى ٥: ٤) بل جعل نفسهُ مثالًا للوداعة بقولهِ لهم (متى ١١: ٢٩): تعلَّموا مني اني وديع ومتواضع القلب. وقد ذكر الانجيل عدَّة احداث تثبت أُنسهُ وتساهلهُ حتى انهُ كان يأكل مع الخطأة والعشارين ويأنس بمحادثة الصغار ويزجر الذين يبعدونهم عنهُ. وبلغ بهِ لينهُ ان دعا التلميذ الذي خانهُ حبيبًا لهُ (متى ٢٦: ٥٠) وصلَّى لاجل اعدائهِ واستماح لهم عذرًا لما صلبوهُ بقولهِ انهم لا يدرون ما يعملون (لوقا ٢٣: ٣٤)

فان كان هذا هو المقصود بالتساهل فانهُ ليس من مكتشفات العصر الاخير وقد عرفهُ الناس منذ القرون السابقة

ولعلَّ رُسل التساهل لا يكتفون بهذا ويطلبون ما فوق ذلك وهو ان يعيش اصحاب الاديان بالتآخي والتحابّ يتَّبع كل منهم دينهُ على ما يراهُ الاصحَّ والاصوب في ضميرهِ ويتعاضدون بالاعمال النافعة لانجاح الوطن ورفع شأنهِ فلا بأس ونحن نوافقهم على ذلك ايضًا. فان الاديان على اختلاف نزعاتها وتباين مذاهبها اللهمَّ اذا ارادت ان تجري على مقتضى المبادئ الصحيحة لا ترضى بغير الذين لا يوافقونها على ترك دينهم وقبول تعاليمها. اذ لا غير في الدين وقد جرت الديانة المسيحيَّة على هذا المبدإ في كل

اطوار حياتها فانَّ منشئها لم يَدْعُ البشر اليهِ بالسيف والاغتصاب لكن بطريقة الاقناع مثبتاً لدينهِ بالمعجزات التي شهد لها اعداؤه فضلًا عن ذويهِ وارسل تلامذته للدعوة ليس كجنود يفتحون البلاد بل كحملان بين الذئاب يبشرونهم بالخلاص ويحتملون اذاهم ويقاسون صنوف العذابات حتى الموت الاحمر في سبيل نجاتهم فيعدُّون نفوسهم سُعداء اذا ماتوا شهداء دينهم لعلمهم بانَّ حبَّة الحنطة لا تأتي بثمر ما لم تهبط في الارض فتموت وتجد في موتها حياةً وزكاء (يوحنا ١٢: ٢٤) . ولعمري من كانت سيرته على هذه الخطَّة نهيبات ان يغتصب قريبهُ او يقهرهُ في معتقدهِ

ثم ان السيد المسيح تقدَّم تلاميذه في هذه الخطَّة فمن كونهِ لم يُرسل الَّا للخراف الضالَّة من بني اسرائيل (متى ١٥: ٢٤) لم يقصر فضلهُ على بني جلدتهِ بل رحم الكنعانيَّة الوثنيَّة فشفى ابنتها (مرقس ٧: ٢٦) وابرأ غلام قائد المئة المشرك (متى ٥—١٢) ولم يأنف كاليهود من مناوضة السامريَّة رقومها (يوحنا ٤) . فانَّ هذه الاعمال وغيرها تدلُّ على تساهل ومجاملة . وقد ادَّى بهِ تساهلهُ الى ان دعا تلميذهُ الخائن بصاحب وطلب من ابيهِ ان يغفر للجلَّادين الذين صلبوهُ

ونرى مثل هذا التساهل في رُسل المسيح فانَّهم ربَّما كرَّروا عليهم في رسائلهم الوصاة بمؤانسة الوثنيين والصبر على ظلمهم . فتارةً يأمرونهم بالخضوع للسلطة البشريَّة التي كانت وقتئذٍ في ايدي الرومان (عبر ١٣: ١٧) ويجعلون مصدر تلك السلطة من الله (روم ١٣: ١) فيتقدَّمون اليهم بان يطيعوا رؤساءهم للمسيح (افس ٦: ٥) . وتارةً يحثُّون المتزوجين بالزواج اذا كانوا من المؤمنين بان يعيشوا مع ازواجهم غير المؤمنين بالحب والوفاق دون ان يفرضوا عليهم الانفصال عنهم لعدم اتيانهم (١ كور ف ٧) وكذلك سمحوا لهم باكل اللحوم التي كان الباعة يقرِّبونها لاصنامهم ما لم يكن ثَمَّ سببٌ للشكوك فيمتنعون عنها (كور ف ٨)

وجرت الكنيسة على هذه السُّنن في كرور الدهور فانك لو راجعت كل صفحة من صفحات تاريخها لرأيت عجائب من آيات لطفها وحبها الوالدي ليس نحو ابنائها فقط بل نحو كل الامم المتسكعة في ظلمات الشرك التائهة في بيداء الضلال فلم تزل تعطف عليها وتتفانى في خدمتها حتى كسرت شباة همجيَّتها وروَّضت اخلاق بنيها وأخذت رؤوسهم لتعاليم الانجيل

وكثيرًا ما وجدت الكنيسة في طريقها شعوبًا قاوموا دعوة رسلها فلا نجد اثرًا في كتابات احبارها او في قوانين مجامعها ما يشير الى تحريضها على محاربتهم ما لم يسبقوا فينشبوا ابناءها الحرب او يتعدّوا على حقوقها كما فعلت أيام الصليبيين بعد ان احرق الفاطميّون كنيسة القيامة في القدس الشريف (اطلب تاريخ القلانسي ص ٦٧–٦٨)

ولنا على تساهل الكنيسة مع اهل الاديان المخالفة لدينها امثلة عديدة فانها بعد تنصُّر قسطنطين وذريّته لم تطلب من الملوك المرتدّين الى دينها بان يغصبوا رعاياهم على اتّباع النصرانيّة في العالم الروماني بل واصلت مساعيها في دعوتهم بطريقة سلميّة على يد دُعاتها ومبشريها الصالحين. وكذا فعلت في كل بلد من البلاد التي دخلتها كفرنسة على عهد كلوفيس وانكلترة واسبانية في زمن غريغوريوس الكبير (المشرق ٧: ٩٨٧–٩٩٨) والمانية على يد القديس بونيفاسيوس فانّ فتوحات الكنيسة كانت دائمًا سلميّة حيثما حلّت وقد شهد بتساهل تبعة المسيح من قال عنهم: «وجعلنا في قلوب الذين اتّبعوهُ رأفةً ورحمةً»

ومن الشواهد على اناة الكنيسة مع المخالفين لدينها معاملتها الحسنة لالدّ اعدائها وهم اليهود فانّ للاحبار الرومانيين في عدّة رسائل ومناشير اوفدوها الى الملوك والاساقفة ينهونهم عن سوء معاملة المرسويين وكان هؤلاء بلاد كثيرة اوغروا صدور الاهالين برباهم الفاحش واحتكارهم للمال والغلات ويفتكهم خفيةً ببعض المسيحيين ويتآمرهم عليهم مع اعدائهم وبيعهم لهم كالرقيق. فمع كل ذلك لم يشأ الباباوات ان يُساء اليهم الصنيع بل يُعاملوا بالعدل كبقيّة الناس مع اتخاذ الوسائل الكافية لتلافي شرورهم. وهكذا صنع نوّاب المسيح في رومية العظمى نفسها أيام سيطرتهم اذ جعلوا لليهود في املاكهم مأمنًا من مناوئيهم وافردوا لهم احياء لسكناهم. وقد اقرَّ اليهود بفضل الاحبار الرومانيين وشكروا لهم غير مرّة حسن صُنعهم

وما فعلهُ الباباوات في امّ المدائن مع اليهود قد فعلهُ كثير من الملوك النصارى مع المسلمين في عدّة جهات. فانّ صكوكًا كثيرة تدلُّ على انّ الصليبيين الفرنج لمّا استولوا على سواحل الشام وبيت المقدس أحلُّوا في تخومهم المسلمين وتركوا لهم كل حرّية في اتّباع دينهم واقطعوا لهم الاقطاعات كما اورد في تاريخ بيروت صالح بن يحيى (ص ٨٣

و ٩٨) بل اتخذوا فرقة مع الاتراك المتطوعين في جيشهم كما بيّن ذلك في تآليفه العلامة شلومبرجر (Schlumberger)

وقد اورد ابن جبير في رحلته ما كان لملوك صقلية من التسامح والتساهل مع مسلمي تلك الجزيرة. فمن قوله عن مسلمي بلارمة (ص ٣٢٤):

وفيها سُكنى الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد. والاسواق المختصة بهم في الارباض كثير. وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسَرْقوسة وغيرها لكنّ المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام اكبرها واحفلها وبعدها سَيْنة . . . وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستمالة المسلمين . . . وهو كثير الثقة بالمسلمين ساكن اليهم في احواله والمهمّ من اشغاله حتى انّ الناظر في مطبخته رجلٌ من المسلمين ولهُ جماعة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤهُ وحجّابهُ الفتيان ولهُ منهم جملة كبيرة هم اهل دولته والمرتسمون بخدمته وعليهم يلوح رونق مملكته . . . واما فتيانه الذين هم عيون دولته راهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ما منهم الّا من يصوم الاشهر تطوُّعًا وتأجُّرًا ويتصدّق تقرُّبًا من الله وترحّمًا ويفتك الاسرى ويربّي الاصاغر منهم ويزوّجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير ما استطاع وهذا كله صنع من الله عزّ وجلّ لساكني هذه الجزيرة وسرّ من اسرار اعتناء الله بهم

ومثلهُ فعل ووجار مالك صقلية الذي اتخذ كثيرًا من المسلمين في اشغاله منهم الشريف الادريسي عهد اليه التجوّل في البلاد لتصنيف كتابه في وصف البلدان

وقد اقتفت بامثال هؤلاء الامم النصرانيّة الحديثة كالانكليز في الهند والفرنسويين في الجزائر والالمان في زنجبار والهولنديين في جاوة. وبالغت الحكومة الفرنسويّة في تساهلها مع اهل الجزائر حتى ابتنت لهم جوامع لصلاتهم

وانّنا لنعلم انّ بعض الدول المسيحيّة لم تجرِ هذا التساهل في القرون الغابرة الّا انّ تلك الحطّة انّما علّتها غالبًا الاحوال السياسيّة وليس كلامنا هنا عن السياسة لانّ مبادئها غير مبادئ الدين. قال ابو الريحان محمّد الشهير بالبيروني في كتابه عن الهند (ص ٢٨٠ من طبعة لندن):

انّ النصرانيّة مبنيّة على الخير وكفّ الشرّ من ترك القتل اصلًا ورفْي القصاص خلف غاصب الطيلسان وتمكين لاطم الخدّ من الخدّ الاخرى والدعاء للمدبر بالخير والصلوات عليه وهي لعمري سيرة فاضلة ولكنّ اهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلّهم وانّما اكثرهم جُهّال ضُلّال لا يقوّمهم غير السيف والسوط ومذ تنصّر قسطنطينوس المظفّر لم يستتر كلاهما من الحركة فبغيرهما لا تتمّ السياسة

فترى ممّا سبق انّ النصرانيّة لا تنفي التساهل ولا تُعامل فقط جميع البشر بالرفق

والتردد تكنّها ايضاً تترك لهم حريّتهم في لزوم اديانهم ولا تجبرهم البتّة على التدين بدينها. الّا انّ المولعين بالتساهل لا يقفون عند هذا الحدّ ويطلبون من كلّ مسيحي ان يعتبر دينهُ كدين غيرهِ فلا يفضّل ديناً على آخر لانّ الاديان على قول هؤلاء مذاهب وآراء والمذاهب والآراء متساوية في الرجحان والصواب فليس للانسان حقّ بان يدّعي لدينهِ الصحّة واليقين فما ادراهُ ان يكون دينهُ هو الصحيح المستقيم دون غيرهِ. فانهُ ان فعل أبدى اغراقاً وغلوّاً في الدين ونسب الى دينهِ الكمال وليس الكامل غير الله عزّ وجلّ

ثم يردفون بذلك قولهم: كم تعاقب من المذاهب في العالم وتوالت الآراء الدينية وتتابعت العقائد فاين الآن تلك المعتقدات فانّها كلها قد تلاشت وذهبت ادراج الرياح فيا ذهب من الاوهام. هذا ما زعمهُ هؤلاء المتشدّقون ورمّا رموا بالتعصّب من رأى الصحّة في معتقدهِ. وما التعصّب عندهم الّا التمسّك باهداب الدين والتشبّث باصولهِ وتفضيلهُ على كل غير سواهُ

دعنا ننظر في هذا الامر مليّاً ونمحص مزاعم هؤلاء المخرقين فننظر أيجوز للمسيحي ان يبالغ في التساهل هذا المبلغ

*

ظهر على ارضنا في بعض انحاء اليهوديّة قبل تسعة عشر قرناً رجلٌ كانت تنتظرهُ الشعوب وتستدعيهِ الامم بل الشوق والرجاء لتجد فيهِ الخلاص من تبعة آثامها وكان بين هذه الشعوب ملّة اختارها الله لتمهّد الطريق امجيئهِ وتُعدّ القارب لاستقبالهِ. وهي تُعان سلفاً في كتبها المقدسة عن كل صفاتهِ في مولدهِ ونشأتهِ وحياتهِ ومماتهِ بل تاريخ ظهورهِ بادق الحسابات واضبطها وتدعوهُ المسيح

فذلك الرجل العجيب ظهر في موعد انتظارهِ وحقّق بشخصهِ حرفاً بحرف كلّ ما كُتب عنهُ لم يترك منهُ ذرّةً وادّعى باللاهوت واثبت دعوتهُ بارضح الآيات واصدق البيّنات فاقام الموتى واعطى النور للعميان والسمع للصُمّ والنطق للخرس وطهّر البُرص وحكم على قوّات الطبيعة فأطاعتهُ. ثم سبق وأعلم بموتهِ وقيامتهِ يروى متعدّدة وفي امكنة وازمنة مختلفة وامام اشخاص متعدّدين بلغ عددهم في بعض الاوقات خمسمائة رجل ظهر لهم وخاطبهم وأكل معهم وبكّتهم على قلّة ايمانهم ثم صعد الى السماء امامهم

فهذا الرسول العظيم والمعلّم الكبير لئن تلاميذه تعاليم المسيح « ليست هي له بل للاب الذي ارسله » (يوحنا ٧ : ١٦) تعاليم ثابتة « يزول السماوات والارض وهي هي لا تزول » (متى ٢٤ : ٣٥) وقد حتم على رسله لتأييدها ان يقاسوا كلّ المحن والشدائد بل يعدّوا نفوسهم سعداء اذا عيّروهم وشتموهم وقالوا فيهم كل كلمة سوء واسلموهم الى كل العذابات ويوثروا الموت بكل غصصه وآلامه على نكران شيء منها لئلاّ ينكرهم هو الربّ يوم الدين امام ابيه الذي في السماوات (متى ١٠ : ٣٢). فيا ليت شعري ايمكن المسيحي بعد ذلك ان يتساهل بالعقائد فيضحي منها شيئاً او يتصرّف بها كتصرّفه بالآراء التي لا تتجاوز الاحتمال والرجوح

ولا يختلف تعليم الحواريين بهذا الخصوص عن تعليم سيّدهم. وناهيك بقول بولس الرسول الى اهل غلاطية حجّة دامغة لا تبقي في الامر ريباً قال ولله درّهُ من قول يجب على المتساهلين بالدينيّات ان يتبرّوه ويمعنوا فيه النظر (غلاطية ١ : ٦—١٠) : « اني لمتعجب كيف تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح الى انجيل آخر (وان لم يكن انجيلٌ آخر) لكنّ قوماً يبلبلونكم ويريدون ان يقلبوا انجيل المسيح. ولكن ان بشّرناكم نحن او ملاك من السماء بغير ما بشّرناكم به فليكن مبسلاً. كما قلنا سابقاً اقول الآن ايضاً ان بشّركم احد بخلاف ما تلقّيتم فليكن مبسلاً. ألعلّي أستعطف الناس ام الله. أأطلب ان أرضي الناس. اني لو كنت بعدُ أرضي الناس لما كنت عبداً للمسيح . . . وأعلمكم ايها الاخوة انّ الانجيل الذي بشّرت به هو ليس بحسب الانسان لاني لم اتسلّمهُ او اتعلّمهُ من انسان بل بوحي يسوع المسيح »

وقد اتّسع الاناء المصطفى في رسالته الى العبرانيين عن حقيقة الايمان وشروطه وخواصّه فبيّن انّ الانسان لا يمكنهُ ان يرضي الله دون الايمان وانّ الايمان وُضع في مقدّمة الدين كاساسه غير المتزعزع. على ان هذا الايمان ليس بايمان اعمى دون ادراك سابق ومعرفة متقدّمة بل يجب على المؤمن ان يتحقّق بعقله انّ الله عزّ وجلّ قد اختار احد اوليائه ليبلّغهُ بواسطته امراً من اوامره وانّ هذا الوليّ اثبت رسالتهُ بمعجزات صادقة لا ريب فيها. وينبغي على المؤمن ايضاً بعد ان تبيّن صدق النبيّ ان يتأكد انّ الله اوحى اليه بتلك الحقيقة التي يبلّغهُ اياها فان ظهر له الامران على وجه جليّ تحتّم عليه الايمان وان لم يدرك كلّ معاني ذاك الوحي ولم يفهم كُنه الحقيقة التي بُلّغها

وقد تبيَّن للمسيحي كل ذلك سواء بلغتهُ قضايا الوحي على يد السيد المسيح او على يد رسله الاطهار بالحجج الراهنة التي يُمكن الوقوف عليها بشواهد التاريخ واعمال الوسطاء بينهُ وبين الله اذ اثبتوا رسالتهم بالمعجزات الواضحة المتعدّدة وضحّوا نفوسهم بطيب الخاطر لبيان صدقهم وقد قال بَسكال الفيلسوف: « اني لمؤمنٌ بدين يبذل ذووهُ نفوسهم للموت تأييدًا لصحّته » وليست هذه شهادة الدم في النصرانيّة لبعض الافراد بل أدّاها بملْ الفرح ألوف وربوات والوف الوفٍ من البشر من رجال ونساء واطفال وفتيات ستوا بدمائهم كلّ بلد من بلاد المعمور واعلنوا بشهادتهم في كل جيل من الاجيال دون انقطاع منذ ايام الرسل الى يومنا هذا كما جرى في هذه الاحقاب الاخيرة في الصين وتونكين وانام وبلاد اوغندا وجزائر الاوقيانوس

فان كان الامر على هذا المنوال فقُلْ لي ناشدتك الله أيستطيع المسيحيّ ان يتساهل بحقائق دينهِ الموحاة فيختار منها ما يروق لهُ ويبذ ما لم يَرُضْ بهِ . وهل تُعَدُّ الكنيسة محطئةً متجاوزة طورَها اذا حافظت على وديعة الايمان تصونها كما يُصان اثمن المتاع وافخر الكنوز فتردّ من حاول سلبها او تغيير شيء منها بكلام الرُّسل في مجمع اليهود لمَّا الحَّ عليهم رؤساء الكهنة والشيوخ بان يكفُّوا عن تبشير الانجيل (اعمال ٤ : ١٩) : « أحكموا انتم . ما العدل امام الله ان نسمع لكم لم نسمع لله فانّا لا نقدر ان لا نتكلّم بما عاينّا وسمعنا » . فهذا القول الشريف قد كرّرتهُ الكنيسة منذ اوّل النصرانيّة وقرّرتهُ في مجامعها وأيدتهُ بتعاليمها المتواصلة وتقاليدها المتوالية لم تهمل منهُ شيئًا البتّة

وليس كلامنا هنا عن بعض الآراء الحرّة او التعاليم الثانويّة التي لم تقطع الكنيسة بصحّتها لعدم وجود الادلّة الكافية على اثباتها وذهب العلماء في بيانها مذاهب بل عن العقائد الجوهريّة التي وردت صريحًا في الاسفار المقدّسة او استخلصتها الكنيسة من تعاليم الرسل والتقاليد الراقية الى عهدهم . فانَّ هذه المعتقدات باقية ببقاء الحقائق التي لا يطرأ عليها تغيير او يشينها تبديل

وكذلك في الكنيسة عدّة امور منوطة بالعمليّات والتهذيبات فُوّض الى رؤسائها الحكم فيها من صوم وصلوات وطقوس وتدابير شرعيّة لا تمسّ جوهر الاسرار فلا بأس اذا الكنيسة تصرّفت فيها على حسب الازمنة والامكنة وظروف الاشخاص وطوارئ

الاحوال . فانَّ هذا التساهل قد جرت به الكنيسة في عهدنا خصوصاً لما رأت فيه من المقتضيات الموافقة للشؤون الحاضرة

وان قال قائل لنَّ في تمسك الكنيسة بعقائدها غلوًّا في الدين وتعصُّباً ذميماً انكرنا ذلك كل الانكار واثبتنا قولنا بالبرهان . نرى في العلم قضايا ثابتة لا يشكُّ فيها الَّا الجاهل بها أفينسب احدٌ الى التعصُّب العلماء القائلين بها او يُثني على تساهل النبيّ الذي يتسامح بها لعدم ادراكه لها . أو ليست حقائق الدين اشرف واثبت من قضايا العلم اذ الموحي بها هو الله عزّ وجلّ الذي لا يُخدَع ولا ينخدع

وان اعترض المعترض قائلًا بانَّ حقائق الدين لا يمكن العقل ان يتصل الى اثباتها بخلاف العلميات . أجبنا كم من القضايا العلميَّة التي لا يستطيع المرء ان يثبتها بنفسه وانَّما يقبلها من العلماء واثقاً بعلمهم أفعلمُ الله لا يفوق كل معارف الحكماء ؟ أوَ لا يستحق سبحانهُ وتعالى ان يوثق بكلامه ؟

ولعلَّ المعترض يقول بانَّ العلميات يمكن ادراكها بالدرس والنظر أما اسرار الدين فلا تُنال بهما . جوابنا انَّ في العلوم الطبيعيَّة نفسها اسراراً عجيبة يقرّ العلماء بجهل اسبابها وشرح صفاتها مع إجماعهم على صحتها أفليس للمؤمن ان يُذعن لاسرار الدين وان جهل وجوه صحتها . فايّ عالم من العلماء قد وقف على كنه المادَّة وتركيباتها وعناصرها الاوَّليَّة ؟ ومن منهم ادرك سرّ القوى الطبيعيَّة والشياء لا تُحصى يرون معاولاتها بالعيان ويجهلون حقائقها . بل كم من الامور القريبة المنال تفوتهم فلا يسعهم انكارها ولا يتردَّد احد منهم في تصديقها والعمل بها . افيمتنع العالم عن الاكل لانهُ لا يعلم كيف يستحيل الطعام الى جسمه ؟ او ينكر النوم لانَّ العلماء حتى يومنا لم يحسنوا بيان اسراره ؟ مَن منَّا رأى الاسكندر او عاين مدينة بابل ؟ ولا احد ينكر ذلك لشهادة التاريخ الصادق في هذه الروايات . فكيف يُلام المؤمن اذا وثق باقوال من لا يُنكر عليهم بالالهيَّات كالسيد المسيح والانبياء والرسل الاطهار وقد اصطفاهم الله لتبليغ اوامره للبشر وأيدهم بقوَّةٍ من لدنهِ فان ردَّ المؤمن شهادة هؤلاء الشهود ألا يقترف اثماً كبيراً ؟ فكم بالحري يجب عليه اذا قبل شهادتهم وصدَّق اقوالهم ألَّا يرجع عن صنيعه ويرتدّ عن ايمانه

وهذا ما حمل الكنيسة على مناصبتها المراطقة ومعارضتها الذين يقاومون تعليم

الخلاص ولها اسوةٌ في ذلك في رسلها انفسهم فانَّ بطرس هامة الرسل تصدّى لسيمون الساحر (اعمال ف ٨) وبولسَ اذ اراد يتّخذ الدين وسيلةً لارباح خسيسة. وهكذا فعل بولس الرسول مع عليما الساحر (اعمال ١٣: ٨) لمَّا حاول ان يتعرّض لبشارة الرسول وقال له: «يا ممتلئاً من كل مكر وخبث يا ابن ابليس يا عدوَّ كلّ برّ ألا تزال تعوّج سبل الرب المستقيمة. فالآن ها ان يد الرب عليك فتكون اعمى لا تبصر الشمس الى حين». ومثلها يوحنا الحبيب المعروف برقّة طباعه فانهُ في رسالته الثانية (يو ١: ٩—١١) يحتم على المؤمنين بان يبتعدوا عمَّن يضلّهم عن تعليم المسيح فقال: «كل من تعدّى ولم يثبت على تعليم المسيح فليس الله له... فمن اتاكم ولم يأتِ بهذا التعليم فلا تقبلوهُ في البيت ولا تقولوا له سلامٌ فانهُ من قال له سلام فقد اشترك في اعماله الشرّيرة». وروى القديس ايريناوس (في كتاب البدع ٣) وسابيوس القيصري في تاريخه (ك ٣ ف ٢٨ وك ٤: ١٤) انَّ الرسول الحبيب دخل يوماً مع بعض تلاميذه حمّاماً في افسس ليستحمّ اذ لمح فيه كيرنثوس زعيم المبتدعين فمن وقته همَّ بالخروج قائلاً: «لا يسوغ لنا ان نبقى وهذا الرجل مما تحت سقف واحد لئلاَّ يهبط علينا السقف بسببه»

وكذلك بوليكربوس تلميذ يوحنا الحبيب وخلفهُ في رعاية المؤمنين فانهُ على ما روى القديس ايرونيموس التقى يوماً وهو في رومية بمرقيون المبتدع فسألهُ مرقيون ألا يعرفهُ اجاب القديس: «نعم اني اعرفك كبكر الشيطان»

فلعمري من يتأمّل هؤلاء الرسل والابرار بالتعصّب الذميم ولم يفعلوا ما فعلوا الاَّ لعلمهم بانَّ موهبة الايمان اعظم المواهب يجب على المرء ان يدافع عن حرمتها دفاعهُ عن اثمن الجواهر واعظم الكنوز. وكان لهم اسوةٌ بمعلّمهم الالهيّ الذي مع جزيل لطفه وطول اناته لم يملك نفسهُ عن تقريع رؤساء الفريسيين وإبطالهم لوصايا الله بسُنَنهم البشريّة الفارغة (متى ٢٣: ١٤—٢٦)

وقد اقتضت الكنيسة آثار منشئها وتأسّست بامثاله الالهيّة فانَّها وهي الامُّ الواسعة صدرًا المفعمة حنوًّا ورقّة كانت اذا رأت انَّ وسائل اللطف والاقناع لا تأتي بنتيجة في اصلاح ابنائها العُصاة تلتجئ على رغم منها الى وسائل اشدّ عملاً والى ادوية انجع فعلاً فتحرم من شركتها اولئك المتمرّدين او تسلّمهم للمحاكم المدنيّة لتأديبهم لعلمها بانَّ الصرامة في وقتها خير واحسن

وانّنا لنعلم انّ اعداء الدين قد تادوا بالويلات لتشدُّد الكنيسة على بعض المارقين وعظّموا الامر واستغظوا العمل ولفّقوا الاحاديث الكاذبة والروايات المختلقة التي ابتدعها البغض والهوى الاعمى ولنا في ذلك فصل ننشرهُ ان شاء الله في احد اعداد المجلة الآتية

وما نقولهُ هنا بالاجمال انّ الكنيسة بلغت الغاية القصوى من التساهل والتسامح الّا في امور الايمان لعلمها بانّ الايمان في يدها وديعة لا يمكنها ان تتصرّف بهِ كيف تشاء فتحفظهُ بكل حرص وعناية وتردّ عنهُ كل غارات الخصوم لا يأخذها في ذلك لومة لائم . فان المسيح وكل اليها حراسة قطيعه لتقودهُ الى المراعي الصالحة وتبعدهُ عن المناجع الوخيمة فان كرّت الذئاب على القطيع فمن الواجب اللازب بان تحول دونها والخراف وتردّ الضواري خاسئة خائبة . وهي هي الموكول اليها بيت اسرائيل فاقامها الربُّ عليهِ كما انتدب ارميا سابقاً حيث قال (١ : ١٠) : « انظر اني اقمتك اليوم على الامم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتُهلك وتنتقض وتبني وتغرس » فمن كانت هذه دعوتهُ هيهات ان يسوغ لهُ التهاون في اتمام مهمتهِ ليتساهل فيها على هواه فان فعل وجب فيهِ قول الرب : « من اهمل شيئاً من هذه التعاليم ولو زهيدةً عُدَّ صغيراً في ملكوت السماوات »

اسحق مطران نينوى

لحضرة القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي

اتحفنا حضرة القس بولس يجان المرسل اللعازري الجزيل الفضل بكتاب وسمهُ مؤلفه الشهير مار اسحق مطران نينوى بالطريقة الرهبانية (Mar Isaac, Bishop of Nineveh) وقد صدّرهُ بمقدّمة منطوية على اخبار المؤلف والنظر في مصنّفاته . فمع اطرائنا همّة الناشر الجليل واقرارنا بصنيعه المستوجب الشكران ودعائنا الى العزّة الالهيّة كي تأخذ بيمينهِ وتطيل في ايّامه خدمةً للدين والعلم ونشر آثار السلف وددنا ان نسطّر على صفحات المشرق الاغرّ شيئاً من اخبار المؤلف الذي شرّف وطنهُ بمصنّفاته الاثيرة

واعلم انّ من الكتبة الاوّلين من خال اسحق هذا ارثذكسيًّا بالاستناد الى تآليفه الحالية (على رأيهم) مما يمسّ العقيدة الكاثوليكيّة الراهنة ومنهم من زعم بانهُ كان